الفصل الثامن

عن حب المال

ينطوي مثل تركي على ما يعني أن الصداقة والمال لا ينسجمان، مثلهما في ذلك مثل الماء والزيت. فما هي إذن العلاقة بين الإيمان والمال؟ هل ينسجمان؟ نعم.. فضريبة الثروة والمال (الزكاة) في الإسلام هي أحد أركانه الخمسة، ومن ثم فإنها عبادة مفروضة[1].

ولعل المرء يلاحظ الذكر المتكافئ، الوارد في الآية ٢٧٧ من سورة البقرة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾. فكما أن الصلاة تقضي على غرور الإنسان، وكما أن الصوم يهذب النفس ويقاوم شهوات الإنسان، فإن إخراج الزكاة يقهر بخله وشحه، فضلاً عن أنه يكبح التفاوت الهائل بين الدخول المادية للناس. لذلك، تفرض الضريبة (الزكاة) بنسبة ٥ر ٢٪ على المال بعد مرور سنة.

ويندرج تحريم الربا في الإسلام تحت الوسائل التي تحقق ذات الهدف؛ إذ إنه يحول دون تراكم أو تكوين رؤوس مال دون جهد.

كثيراً ما يجد المرء أن الزكاة تترجم خطأ في كتابات المستشرقين على أنها الصدقة أو «ضريبة الصدقة» (وهو ما ينطوي على تناقض). فالصدقة يؤديها المسلم طواعية بإرادته الحرة تماماً، لأن الإسلام يحض على الإحسان. أما الزكاة فضريبة معلومة مفروضة، يحق للدولة المسلمة أن تتلقاها، بل وأن تجمعها حتى تستطيع أن تفي باحتياجات بعينها، فصَّلها القرآن في الآية ٦٠ من سورة

(١) انظر: الزكاة: سلسلة مطبوعات المركز الإسلامي بميونخ، العدد ٦. ميونخ (١٩٧٨).

التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فالدولة المسلمة، تتلقى أو تجمع الزكاة لإنفاقها على رعاية الفقراء والمساكين، وحديثي العهد بالإسلام، وعابري السبيل، والمدينين والمسجونين تنفيذاً لعقوبة، والإنفاق على أعما ل الإدارة والدفاع، ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي في العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام والعمل على نشره.

الزكاة في الإسلام، الذي يرى نفسه ديناً ودولة، عنصر بناء حيوي. فحينما امتنعت بعض القبائل العربية عن أداء الزكاة، بعد وفاة الرسول ﷺ، حاربهم خليفته الأول أبو بكر على أنهم مرتدون.

ولكن ما هو إذن موقف المسلم في الغرب من الزكاة؟ هل يسقط عنه التكليف بأدائها، لأنه يؤدي ضرائب عن أجره ودخله وثروته إلى دولة غير مسلمة؟

بما أن الدولة الغربية لا توجه أي «ضريبة كنسية» لخدمة طوائفها الإسلامية، ومن ثم فإنها لا تحقق هدفاً مهماً من أهداف الزكاة في الإسلام، وهو إعلاء شأن الإسلام ونشره، لذلك، فلقد انتهيت إلى أن أؤدي زكاة إضافية إلى مؤسسات إسلامية أختارها، وبصفة خاصة في ألمانيا، بحيث تكون حريصة كل الحرص على أن تنفق المال في مصارفه المحددة.

وإلى جانب ذلك، فإنني أتنازل عن حقوقي بوصفي مؤلفاً لدور النشر الإسلامية، سواء في ألمانيا، أو الولايات المتحدة، أو الجزائر، أو المغرب، مساهمة مني في العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام وانتشاره، أي إسهاماً مني في العمل ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ويؤدي الكثيرون من العمال الأجانب المسلمين في ألمانيا الزكاة، وليس أدل على ذلك من وجود مئات المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية بها. ويوجد بالمساجد أماكن لتلقي الزكاة التي تؤدى مرة واحدة في السَّنة. وعادة ما يكون المبلغ المجموع كبيراً بما يمكن من تخطيط الميزانية على نحو أفضل.

ويتلقى بعض المساجد في ألمانيا، بطبيعة الحال، «بترودولارات» (دولارات نفطية). وأيا كان مصدرها، سعودياً أو إيرانياً أو ليبياً، فإنها تترك تأثيراً خاصاً يرتبط بمصدرها.

ولقد كان من الممكن التغلب على كثير من المشكلات المالية، التي تواجه الطوائف أو المجموعات الإسلامية في ألمانيا، لو أنها اتبعت نظاماً كفئاً للضرائب، كذلك المطبق في حالة الضرائب الكنسية المسيحية واليهودية. ولكن ذلك قد يؤدي من الناحية الأخرى إلى بروز مشكلات سياسية أكبر منها، تحل محلها، من قبيل: الرقابة على الأموال وتوزيعها في مجتمع متعدد الثقافات.

من هنا، كان فخري واعتزاري بالمسلمين الأندلسيين الملتفين حول الأستاذ عبد الرحمن مدينه موليرا، الذين نجحوا، بفضل مساندة وتشجيع رجاء (روجيه) جارودي المتحمس دائماً، في عام ١٩٩٤، وبعد توقف دام ٨٠٠ عام، في بناء مسجد في قرطبة دون مساعدات مالية أجنبية، ويبعد موقع هذا المسجد مئة متر فقط عن موقع مسجد قرطبة القديم الكبير. ويتمتع هؤلاء المسلمون بحق الدعوة إلى الصلاة بأذان ينطلق من منارة المسجد. ليس هذا فحسب، بل إنه يرتبط أيضاً مع «جامعة ابن رشد الإسلامية بالأندلس»، التي افتتحت في نهاية أغسطس عام ١٩٩٤. ولعل استقلال مسلمي الأندلس خير نموذج يحتذي به المسلمون في ألمانيا.

ولكن ماذا يفعل المسلم لكي يحافظ على ثروته وينميها؟

يرتبط هذا السؤال أيضاً بمشكلة «البخل». ويقودنا على الفور إلى ذكر تحريم قرآني مزدوج، يحرم على المسلم في العالم الرأسمالي أيضاً أن يقامر أو يضارب بالمال أو أوراق اليانصيب لتحقيق أرباح بالمضاربة، كما يحرم عليه أيضاً الإقراض بفوائد، لأنه ينبغي عليه أن يكسب عيشه بعمله هو، وبما يتحمله هو أيضاً من مخاطر.

إن إشكالية سوق رأس المال المشار إليها إشكالية معقدة، وبصفة خاصة لأن الدول الغنية «الأشد إسلامية» في هذا العالم لا تستحيي أن تودع أموالاً طائلة في بنوك الغرب التي تتعامل بالربا، كما أنها ذاتها تسعى إلى عقد صفقات مصرفية على أسس ربوية.

لذلك، دارت في لقاء للمسلمين الناطقين بالألمانية - عقد في آخن في ديسمبر عام ١٩٨٦ - مناقشات جادة حول مفهوم الربا المحرم بنص الآية القرآنية ٢٧٥ من سورة البقرة، سعياً إلى فهمه. ولقد لخصت رأيي آنذاك في أن مفهوم الربا، الوارد في القرآن وفي أحاديث الرسول ﷺ، ينصب حسب أصله التاريخي على الفائدة الربوية التي تفرض استغلالاً لحاجة المقترض وللضائقة الاقتصادية التي يمر بها. ومن ثم، فإن من يقترض من المصرف الألماني لشراء سيارة ثانية، لا يتعرض لاستغلال من جانب المصرف. وأشرت أيضاً إلى أن الفوائد على المدخرات غالباً ما تعوّض فقط الخسارة الناجمة عن التضخم، وإلى أن المدخر يعوض ما يفقده من ربح (كان من المحتمل أن يحققه من استخدام آخر لرأسماله) بما يحصل عليه من فائدة على مدخراته.

ومع أنني لم أكن الوحيد الذي يتبنى هذا الرأي، فقد كان رد الفعل له سلبياً، إذ تمسك معظم الذين شاركوا في المناقشة بالمفهوم الأصولي للربا، الذي يرى أن تحريم الفائدة مجرد شكل خاص من التحريم الشامل للربا[1].

ماذا يفعل المسلم الألماني إذن بمدخراته؟ فعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الدكتور أيوب (أكسيل) من معهد الاقتصاد الدولي في كولونيا، فإنه لا يوجد في ألمانيا بعد مؤسسة مالية إسلامية. وهذا أمر لايثير الدهشة على الإطلاق، عندما يتابع المرء الصعوبات التي ما تزال تواجه باكستان في سعيها إلى إقامة اقتصاد بلا فوائد. فكيف تجمع شركة رأس المال دون فائدة؟ كيف إذا كان ذلك سيقترن بمخاطر كبيرة لرأس المال؟ كيف يعمل تخصيص الموارد دون فائدة معياراً للربحية؟ كيف يمارس المصرف المركزي سياسة نقدية غير دورية في غياب الفائدة بعَدِّها أداة؟

إن الحل لا يمكن أن يكون في طلب مسلم ألماني من المصرف الذي يتعامل معه أن يفتح له حساباً ادخارياً بدون فوائد، لأن هذا طلب من شأنه أن يهدم النظام المصرفي بأكمله. وسيكون رد موظف الشباك المتوقع استناداً إلى خبرته هو «أولاً: إننا لم نفعل هذا على الإطلاق من قبل. وثانياً: إننا كنا نفعل دائماً شيئاً آخر. وثالثاً: إن هذا سيكون سابقة يستند إليها أي شخص».

إن محاولة إيجاد حل من هذا القبيل تعني ببساطة أنه من الخطأ محاولة أسلمة

(١) يتناول غاني غوس إشكالية اقتصاد بلا فوائد ربوية بشكل رائع في كتابه: «الفكر الاقتصادي في الإسلام»، شتوتجارت (١٩٨٦)، ص ٦١. وكذلك سيد نواب ناقفي في كتابه الصادر باللغة الإنجليزية: «الأخلاقيات والاقتصاديات»، لايكستر (١٩٨١). وكذلك عمر شابرا: «الإسلام والتطور الاقتصادي» إسلام آباد (١٩٩٣).

نظام اقتصادي عن طريق إلغاء الفائدة. فإلغاء الفائدة يمكن دائماً أن يكون مجرد جزء من عملية تغيير عميقة ناحجة متعددة الجوانب، لتقليص الرأسمالية نظاماً[1]، أولتعديلها حتى لا تعارض النظام الإسلامي.

إن المشكلة تظل قائمة حتى في حالة التوصل إلى نظام لحسابات ادخارية دون فوائد، لأن أصحاب مثل هذه الحسابات يساعدون المصرف في منح قروض بفوائد. ناهيك عن أن المصرف يجد صعوبة في التعامل مع عملاء مسلمين يفكرون تفكيراً غير اقتصادي. ويتبين ذلك من رسائل أتلقاها بانتظام من المصرف الذي أتعامل معه، تقول: «السيد المحترم دكتور هوفمان، يُظهر حسابك الجاري في الوقت الراهن رصيداً مرتفعاً. ولذلك، فإننا نسمح لأنفسنا أن نلفت انتباهكم لإمكانات جذابة لاستثماره...».

إن المسلم الألماني، الذي يريد أن يتجنب شبهة مخالفة التحريم القرآني للمضاربة وللربا، لا يشارك على أي حال في أرباح ناجمة عن استثمارات لرأس المال ذات فوائد محددة سلفاً في حدود قيم معينة، أو من أعمال تتسم بالمضاربة في السلع أو الأسهم أو العملات. ويبقى له أن يوظف أمواله بوصفها رأس مال منتج في استثمارات تحوطها المخاطرة، كأن يشارك في شركة تجارية، أو يستثمر في صناديق استثمار، أو في أسهم (مستثمراً لا مضارباً). ولن يترتب على ذلك انهيار سوق المال الألماني.

يندرج تحت المبدأ الإسلامي بمحاربة البخل، الدعوة إلى نحر الأضحية (الحيوانات) في عيد الأضحى، وفي مناسبات أخرى، تكفيراً عن بعض الذنوب

(١) لنظرة شاملة لمجمل إشكالية نظام اقتصادي إسلامي، انظر: خورشيد أحمد في: إبراهيم أبو رابي(ed) «عودة الروح الإسلامية»، إسلام آباد (١٩٩٥). و «استبعاد الربا من الاقتصاد»، إسلام آباد (١٩٩٤).

أو المخالفات، وغير ذلك. ويصف القرآن والسنَّة كيفية النحر، ويضيف القرآن إلى ذلك ما هو أهم: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾. (سورة الحج - الآية ٣٧).

شهدت لأول مرة، في عام ١٩٨٢ في إسطنبول، كيفية نحر الأضحية، حيث شاهدت شاة تذبح على رصيف أحد الشوارع، في مناسبة افتتاح محل جديد لبيع الأحذية. ولقد أحسست بعدم الارتياح، وأنا أشاهد هذا المشهد. وما أزال حتى اليوم أشعر بعدم الارتياح، عندما أشاهد حيواناً يذبح، على الرغم من أنني شاهدت ذلك عشرات المرات.

إن المناسبة الرئيسية التي تنحر فيها الشياه، هي عيد الأضحى الذي يمثل ذروة شهر ذي الحجة، على نحو ما ذكرت بقدر كبير من التفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب. وفي الرباط، كانت الأمة كلها تنتظر لتشاهد على شاشة التلفزيون الملك الحسن الثاني وهو يؤدي واجبه في نحر الأضحيّة باعتباره أول من يفعل ذلك من أفراد الأمة. وكنت كجميع السفراء المسلمين أؤدي صلاة العيد مع الملك الحسن الثاني بمسجد أهل الفحص، في المنطقة التي يقع بها القصر. وبعد الصلاة، كان الملك يقوم بنفسه بنحر كبشين أملحين، مع وضع منديل أبيض في طريق انبثاق الدم. وبعد ذلك، شاهدت في مسكننا طاهينا (الطباخ)، وهو ينحر كبشين محاطاً بأسرته الكبيرة. وكان قد اشترى أحد الكبشين بنفسه، في حين كان الكبش الآخر «كبشاً ملكياً»، إذ كان هدية من الملك.

ويجوز لي، حسب الشريعة، أن أنيب عني من ينحر الأضحيّة، ولكن لابد لي من أن أكون حاضراً عملية النحر لأنطق بنفسي«باسم الله». ولم يكن يمضي سوى

ساعات قليلة قبل أن نكون قد انتهينا من أكل نصيبنا من الأضحيّة، وهو الكبد مشوياً. أما بقية الأضحيّة، فكنا نهديها في قطع كبيرة إلى العاملين الكثيرين بمنزلنا.

في المغرب، يعد ميلاد طفل جديد من أكثر المناسبات التي تنحر فيها الأضاحي. فلقد جرت العادة هناك على أن يدعو المرء إلى حفل إفطار كبير، في وقت متأخر عن الإفطار المعتاد، يقام بعد مولد الطفل بمدة من ثمانية إلى أربعة عشر يوماً. وفي هذه المناسبة تنحر شاة على الطوى (خالية المعدة)، أمام كاميرات الفيديو، أضحيّة شكراً لله وحمداً له على إتمام الولادة السعيدة (ويمكن أن ذلك أيضاً بهدف درء الحسد عن المولود).

تعد أسواق الأغنام قبل وقت قصير من عيد الأضحى حدثاً متميزاً. فبينما كنا في طريقنا من سبتة إلى الرباط في مايو عام ١٩٩٤، اعترضتنا أمام بوابات تطوان آلاف من رؤوس الأغنام محاطة ببائعيها. ومع ذلك، كانت البهجة تعم الجميع. وكانت وسائل النقل متعددة وغريبة، أحضرت لنقل الأغنام، تسد الطريق. وكان من نتيجة ذلك، أننا استغرقنا من الزمن ساعة ونصف الساعة حتى استطعنا أن نجتاز هذه السوق، الشبيهة بخلية نحل، ونواصل طريقنا.

كان انتقالنا إلى مسكن آخر مجدد في إسطنبول مناسبة أخرى لأن نقدم أضحيّة، تعبيراً عن الشكر لله. وكان أنسب مكان لذلك، هو المؤسسات الخيرية بمسجد السلطان أيوب عند القرن الذهبي. فهناك يدفع ثمن الأضحيّة، ويحدد كيفية توزيع لحمها، ويختار الشاة التي يضحِّيها، ويشهد عملية النحر، وتطبع على جبينه، باعتباره المُضحِّي، قطرة من دم الأضحية[1].

(١) وهذا فعل خاطئ وهي عادة مبتدعة يجب الإقلاع عنها.

يتجاهل الناس في الغرب، في حياتهم اليومية، الحقائق غير المبهجة في حياتنا، كتلك المتعلقة بالميلاد والشيخوخة والمرض والموت. فلا ينبغي لشيء دام أن يعكر صفو حياتنا النفسية الهادئة. فالمرأة التي تعاني آلام المخاض، تدخل غرفة التوليد، ثم تخرج إلى زوارها في أبهى زينتها. وفي المستشفيات الحديثة، يتحول المرضى إلى نزلاء في فندق. ويُودَعُ المسنُّون في مآو (دُور) مخصصة لرعايتهم، ومن ثم تُبعَد كلمة « مسن» عن أن تقلقنا. وعندما يتعلق الأمر بالموت يجد المرء في أمريكا نفسه وقد غاب في «دار آخرة». . فيالها من سخرية!

أما فيما يختص بالحيوانات، التي كدت أنساها، فإنها تذبح على نحو متكرر، دون أن نرى أو نشم أو نسمع عملية ذبحها. ولكنها تأتينا كقطع للأكل في صورة صدور أو أوراك نظيفة معقمة مغلفة لنخرجها من جهاز التجميد (الديب فريزر) إلى الموقد مباشرة. . . باختصار شديد. . . بطريقة إنسانية.

إن نحر الحيوان بوصفه أضحية في واقع الأمر مسألة حياة وموت. فالحيوان يفقد حياته إن عاجلاً وإن آجلاً، كما نفقد نحن أيضًا حياتنا إن عاجلاً وإن آجلاً. ولكن الفرق بين الحالتين، يكمن فيما إذا كان الموت يحدث كأمر لا مفر منه، يعي المرء حتميته كجزء من إيمانه بالله، أو إنه يحدث نوعاً من موت ذليل.

ومع ذلك، دعونا نتذكر أنه لا ينال اللهَ دمُ الأضحية ولا لحمُها، وإنما يناله معنى الإجلال وتقوى الله وشكره، الذي تنطوي عليه الأضحية. والعبرة لمن يعتبر!!